ماذا يحدث في شارع حيفا؟
بين الامريكـــــان والمسلحيـــــن.. طـــــار الـــــرزق!

صافي الياسري

لم يدرك الكوريون الذين بنوا عمارات شارع حيفا أنهم شاركوا النظام المباد في حملة تشويه بغداد القديمة التي اطلق عليها النظام تسمية حملة تحديث بغداد ، وانهم شاركوا في تغيير طابعها ودفن اصالتها في رقعة بغداد المدورة نفسها.
هذا الشارع الشاذ عن العمارة البغدادية بقي يمثل ذروة النفور عن بقية شوارع بغداد وعن عموم جسدها الذي كان برغم بساطة تكوينه جميلاً وساحراً.
وقد منحت عمارات هذا الشارع في الاغلب للجالية العربية في العراق من اللاجئين الفلسطينيين الذين طردوا من ارضهم بعد الاحتلال الاسرائيلي ، فضلاً ، عن مجاميع من السوريين والاردنيين واليمنيين وقد فر بعض من افراد هذه المجاميع من شقتهم بعد سقوط النظام خشية ان يتعرضوا للأذى على ايدي البعض ممن اعتبروهم شركاء للنظام ومنتفعين منه ومشاركين في سلبهم حقوقهم.
واضافة إلى هؤلاء وزع النظام المباد عدداً من الشقق على ضباط الحرس الجمهوري الخاص وتحديداً ، الخط الاول من حماية العائلة الحاكمة و (اتحاد الصداميين) واعطى بعضها لعدد من الاساتذة الجامعيين زيادة على العمارة التي خصصها لهم مشترطاً عليهم ان يكونوا من البعثيين.

صمت الاغلبية

أما "صدامية الكرخ" فقد منحت شققها لقدامى الساكنين في المنطقة، بينما بقيت بيوت ازقة شارع ٦ رديف شارع حيفا أو الساحة الخلفية له على وضعها القديم، وهي في الغالب بيوت خربة غير صالحة للسكن. وازقة الشارع على العموم ضيقة ولا يتجاوز عرضها المترين وبعض الاحيان يبلغ عرضها متراً واحداً وتنقصها الخدمات، فلا انارة ولا تعبيد، وقد ملأت المياه الثقيلة الطافحة عدداً من هذه الازقة، كما تناثرت قمامة البيوت في اغلبها، ويخشى موظفو امانة العاصمة والمتعاقدون معها على ولوجها. وعلى الرغم من هذا الفقر، وبصمت الاغلبية فان الجو الغالب هنا ضد التغيير السياسي. وعلى هذه الخلفية نرى ان مجتمع شارع حيفا مجتمع مركب مليء بالمتناقضات، ومع ذلك يبدو في اطاره العام متوحداً في عدائه للتغيير السياسي ولاسيما في المنطقة المحصورة بين ساحة الطلائع ومقهى البيروتي ويقال إن غالبية العسكريين في هذه الرقعة، ونقصد العسكريين القدامى، تم تنظيمهم في خلايا جديدة مهمتها استهداف الشرطة والحرس الوطني والموظفين الحكوميين في محاولة مستميتة لمنع استقرار الوضع الأمني وبناء الدولة وإتمام العملية السياسية.

مواجهات

وقد احرق عدد من السيارات التابعة لجهاز الشرطة وكذلك عدد من سيارات الحرس الوطني في المواجهات التي حصلت بين المسلحين والشرطة والحرس الوطني والقوات المتعددة الجنسيات ما زالت هياكلها تقبع على رصيف الشارع الصاعد من ساحة الطلائع باتجاه الجسر الحديدي (جسر الصرافية). ويمكنك مشاهدة ١٢ هيكل سيارة مدنية صدئاً إلى جنب احدى عمارات شارع حيفا، لا ندري لماذا لا (تتوكل على الله) أمانة العاصمة وتحملها إلى مقبرة السكراب على اطراف حي الدورة على سبيل المثال، أو عند مزابل الكاظمية على طريق الموصل بغداد؟ يصعب على الشرطة هنا المرور بالشارع بسياراتهم وبزيهم الرسمي، فهم مستهدفون من قبل المسلحين ويعد القميص الازرق، بغض النظر عمن يرتديه، علامة على الانتماء إلى جهاز الشرطة.
ولم تعطنا شرطة الصالحية ولا شرطة الكرخ اية معلومات حول الوضع في شارع حيفا مشترطة موافقة قيادة شرطة بغداد التي ارتأت موافقة وزارة الداخلية ورأينا نحن من جانبنا ان هذا الروتين يحتاج وقتاً ويمكن ان نترك له صفحة خاصة بالرؤية الرسمية لما يحدث في شارع حيفا.

استاذ الجامعة الذي صار بائع ببسي كولا

(ابو زينب) دكتوراه في الفيزياء النووية وهو استاذ جامعي في احدى كليات العلوم العراقية وواحد من ٢٥ متخصصاً في الفيزياء النووية، طردته من منصبه سلطات (صدام) لاسباب طائفية، فافتتح محلاً في البتاوين يبيع فيه (البيبسي كولا) والمشروبات الغازية الاخرى وليس من حقنا الافصاح عن عنوانه الحقيقي حفاظاً على حياته.
وقد اسهم الرجل في ايصالنا إلى عمارة الاساتذة التي شهدت عصر ١٥ / ١٢ مداهمة اميركية حطمت ابوابها واجبرت قذائف الشينوك (الهليكوبتر) ساكنيها على مغادرة شققهم واللجوء إلى اروقة العمارة وممراتها إلى حين انتهاء الغارة او المداهمة خشية تحطم الزجاج أو خشية احتمالات غير محسوبة، ونحن نتساءل مع الاساتذة ما هو سر استهدافهم؟

ساحة الطلائع

وهي الساحة التي تكمن اسفل جسر باب المعظم من الجهة الكرخية ويتجه فرع منها إلى شارع ٦ وآخر إلى خضر الياس وصدامية الكرخ، وخضر الياس مقام يزوره بعض البغداديين وينذرون نذورهم ويقع تحت الجسر تماماً.
وهي بموقعها هذا تمثل عقدة يسيطر عليها المسلحون سيطرة غير مكشوفة، وهم يستخدمون فيها مبدأ حرب العصابات (اضرب واهرب) وقتلوا فيها ثلاثة من موظفي المفوضية العليا للانتخابات اثناء مرورهم في الساحة وعدداً من المسؤولين الحكوميين ويضربون سيارات الشرطة والحرس الوطني، وقد دهمتهم قوات الشرطة والحرس الوطني والقوات المتعددة الجنسيات واعلنت انها القت القبض على منفذي عمليات الاغتيال.

في مواجهة المسلحين
المواجهة الاولى

المواجهة الاولى لي مع مسلحي المنطقة كانت قبل شهر، وكنت عائداً من قيادة شرطة بغداد ماراً بشارع ٦ متجهاً إلى شرطة الصالحية، واثناء مروري حدثت مواجهات بين المسلحين والقوات الاميركية، وقتل خلالها رجل في ورشة لتصليح السيارات بسبب اطلاق النار العشوائي فاظهرت كاميرتي محاولاً تصوير ما يحدث، عندها قفز إلي اربعة اشخاص مسلحين بمسدسات والبسوني قناعاً ووضعوني في سيارة واقتادوني إلى مكان ما، ودققوا هويتي وانتزعوا كارت الكاميرا وبعد ان عرفوا اني صحفي عراقي اعادوني إلى المكان الذي اقتادوني منه، وخلال مدة تحققهم من هويتي واسئلتهم التي وجهوها لي عرفت انهم من منتسبي الجيش السابق وتحديداً من الحرس الجمهوري وربما كان بعضهم من جهاز المخابرات أو الأمن العام، فقد تداولوا كلمة - سيدي - والسيد العام - والسيد العقيد، وحملوني في حينها رسالة إلى السيد اياد علاوي رئيس الوزراء لم أشأ ذكرها فلم تكن سوى عبارة بذيئة.

استهداف الشرطة والحرس الوطني والموظفين الحكوميين في ساحة الطلائع

المواجهة الثانية

-المواجهة الثانية تمت بوساطة (فيترجي) في شارع ٦ قريباً من مستشفى الكرامة، وحضرها ثلاثة من المسلحين يبدو ان لهم موقعاً مؤثراً وقيادياً، وبعد ان تأكدوا من هويتي الصحفية اخبروني انهم من ضباط الحرس الجمهوري السابق وانهم ما زالوا يتقاضون رواتبهم وينفذون أوامر قادة لهم تأتيهم بوسائل لا يريدون الكشف عنها، وذكر احدهم على سبيل المثال شفرات خاصة في رسائل يحملها جهاز الموبايل، ولهذا تقوم القوات المتعددة الجنسية بمداهمات مستمرة في المنطقة وتعزلها عن بقية الشارع في اغلب الاحيان وتقوم بالتشويش على عمل شبكة الموبايل أو تعطيله.
وذكر هؤلاء ان اهدافهم هي العمل على اطلاق سراح صدام حسين وبقية المسؤولين في حكومته واسقاط حكومة اياد علاوي ومحاكمة اعضائها واعضاء الاحزاب التي تشكلت تحت ظل الاحتلال، واعادة الجيش وعموم الاجهزة الامنية واعادة المفصولين إلى وظائفهم والغاء قرار حل حزب البعث، ويتم هذا كله بعد طرد القوات الاميركية من البلاد، وعلى هذا الاساس فهم يعدون الشرطة والحرس الوطني والموظفين الحكوميين ومنهم الكناسون خونة يستحقون الاعدام وعلى الطلبة.. حتى.. ان يتوقفوا عن الدوام ويتعرض موظفو مستشفى الكرامة الواقع في شارع ٦، بمن فيهم الاطباء الذين قتل المسلحون بعضهم، وكذلك الممرضات إلى مضايقات مستمرة ويقول بعضهم أنهم تلقوا تهديدات بالقتل إذا لم يتوقفوا عن الدوام.
وعن الذخيرة والسلاح يقول المسلحون انهم ما زالوا في حالة حرب مع الاميركان وان وزارة الدفاع العراقية والجيش العراقي لا يخضعان لقرارات الاميركان، ولهذا فالوزارة في اعتبارهم ما زالت قائمة وما زال الجيش العراقي القديم كياناً قائماً حتى لو بقي فيه ثلاثة جنود. وهم يحصلون من قادتهم على الذخيرة والسلاح ويعيدون تنظيم انفسهم ويتصلون برفاقهم القدامى ويستأجرون دوراً في مناطق عدة من بغداد والمحافظات لاستخدامها لأغراض السكن وخزن السلاح والذخيرة، وهم يتدربون في هذه الدور وقد ينجون في استعادة حلقات مهمة من خبراء التصنيع العسكري ومن ضباط الاستخبارات العسكرية وجهاز المخابرات، وان المفارز العسكرية في شارع حيفا ليست هي الوحيدة في بغداد ويذكرون ان الجنود الذين هاجموا مركز شرطة الاعظمية قبل شهر كانوا يرتدون الزي العسكري للجيش العراقي السابق، وكان عددهم يتجاوز المئتي جندي ويقودهم ضباط من الجيش العراقي السابق، وليس صحيحاً أن الزرقاوي هو الذي نظم ذلك الهجوم، ويقول المسلحون أنهم يستهدفون العراقي الذي يساهم في تشغيل ماكنة الدولة العراقية قبل الاميركي المحتل (!) فتعطيل هذه الماكنة سيضع العراقيين امام خيار لا يقبل النقاش وهو طرد الاميركان من البلاد وعودة الدولة القديمة!
ويرافق المسلحين احياناً مصورون مجهزون بكاميرات رقمية متطورة يصورون عملياتهم أو المواجهات التي يخوضونها مع القوات المتعددة الجنسيات أو مع الشرطة والحرس الوطني ويوزعون الاقراص المصورة على مكاتب عدد من الفضائيات ويتداولونها فيما بينهم ويوزعونها على الانصار والمؤيدين.
وتشعر فعلاً وانت تتبع خيوط هؤلاء المسلحين وتدرس أوضاعهم، ان هناك تنظيماً وتنسيقاً بين مجاميع صغيرة أو زمر لا تتعدى الثلاثة أو الاربعة اشخاص يطلقون على انفسهم تسمية (المجاهدين) وهم ليسوا بالضرورة من العسكريين القدامى وان كان هؤلاء هم الصلب والجوهر في شارع حيفا، فثمة السلفيون والمتشددون من السنة العرب والاكراد، ويستخدم المسلحون في شارع حيفا الاطفال والنساء كحلقات استطلاع متقدمة وكعناصر استخبارات مفيدة في ما يسمونه (صفحة حرب الشوارع)، ومن الجدير بالذكر هنا ان الهجمات التي يشنها هؤلاء المسلحون لا تنطلق من العمارات السكنية، فقد اكتشف المسلحون أنهم يتعرضون لخسائر كبيرة إذا ما انطلقوا من هذه العمارات كما حصل عندما هاجم الحرس الوطني اربع عمارات كان المسلحون ينطلقون منها لشن هجماتهم وقتلوا عدداً كبيراً.

سكان العمارات

يخشى سكان العمارات الحديث عن مشاعرهم ومواقفهم تجاه ما يجري حولهم تجنباً لما يمكن ان يتعرضوا له من عقاب على أيدي هؤلاء المسلحين، والعدد القليل الذين تحدثوا لنا طلبوا عدم ذكر اسمائهم.
استاذة جامعية وزوجها استاذ جامعي ايضاً قالا انهما يشعران بالرعب حين يخرجان إلى شارع حيفا للذهاب إلى عملهما وحين يعودان اليه للاستقرار في مسكنها.
ربة بيت قالت ان عائلتها بقيت يومين دون طعام لأنها كانت تخشى الخروج إلى الشارع بسبب المواجهات بين الاميركان والمسلحين.
صاحبة صالون (حلاقة) اغلقت محلها لأن احداً لم يعد يجرؤ على دخول الشارع فيكف بفكرة التزين فيه؟
صيدلانية أغلقت صيدليتها وتقول: انها مهنة شاقة العيش في شارع حيفا أو العمل فيه.
صاحب محل لبيع المواد الغذائية يقول: بين الاميركان والمسلحين طار الرزق!
صاحب محل بيع الادوات الاحتياطية للسيارات في شارع ٦ يقول: ((تعزيله من وكت ميخالف، رزق ماكو ميخالف، دفع خاوه ميخالف.. بس رصاصة طايشة اشلون؟))
ممرضة من مستشفى الكرامة قالت انها تلقت تهديداً في حال استمرارها بالدوام وانها لهذا السبب ستترك عملها.
اغلبية السكان واصحاب المحال أبدوا رغبتهم في ان يعود الهدوء إلى الشارع ليتمكنوا من مواصلة حياتهم واعمالهم واشار بعضهم إلى ان اغلبية المسلحين هم ليسوا من سكان المنطقة برغم انهم يجدون فيها ملاذات ويلتف حولهم المراهقون.

المشهد الاخير

وما يمكن أن تصوره الكاميرا الممنوعة من دخول شارع حيفا تحت شبهة التجسس، هو الشعارات المكتوبة على حيطان العمارات ضد الحكومة المؤقتة ورئيسها وضد الاحزاب وضد الاميركان والشعارات المؤيدة لعودة الجيش وهيئة علماء المسلمين والفلوجة والمجاهدين.
ويمكن قراءة لوحة حديثة غيرت اسم ساحة الطلائع واستبدلته باسم ساحة عبد العزيز البدري، وهو الشيخ الذي كان اماماً لجامع العساف في الاعظمية واعدمه صدام بتهمة الانتماء إلى جماعة الاخوان المسلمين.
ومن غير الممكن اغفال ان شارع حيفا بعد تقاطع الشهداء باتجاه الشواكة والصالحية يشكل النقيض تماماً من جزئه الممتد من ساحة الطلائع حتى مقهى البيروتي، فهو نقيض هادئ تماماً، ولا ادري هل وجود الدور التراثية البغدادية هو السبب أم وجود حسينية السيف والاغلبية الجعفرية من السكان؟

بعض المسلمين يكشفون لـ (المدى) عن اهدافهم

الملثمون في شارع حيفا ورديفه شارع ٦ يخلعون لثامهم